***ابحاث في جغرافية بغداد التاريخية والاجتماعية***

أ.د.عباس فاضل السعدي

مركز احياء التراث العلمي العربي ـ جامعة بغداد

الطبعة الأولى

بغداد 1432هـ ـ 2011م

**المقدمـة**

رغم ان موضع بغداد عريق في حضارته, موغل في قدمه الا ان المنصور ابي جعفر قد احيا هذا الموضع ببناء دار السلام لتكون اولا لسان تاريخ , ولتكون ثانيا قوة دافعة , ولتصبح ثالثا نبعا مميزا ينفع الانسان ويمنح الانسانية اكمل وانضج حضارة .

انها مدينة بغداد , هذه الحاضرة العربية العريقة في حضارتها وثقافتها.. الغنية بآثارها وفنونها ومواردها , يمكن ان تعد بحق من اعظم مدن المعمورة في القرون الوسطى لما خلدته من آثار مادية وفكرية وفنية جعلتها تفوق شهرتها، وبخاصة في العصر العباسي ، شهرة مدن اخرى مثل دمشق والقاهرة وقرطبة والقسطنطينية .

وقد ظلت مدينة بغداد محتفظة بهذا المركز المرموق حتى الربع الاول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حيث اصابها ما ادى الى تدهور احوالها بصورة خاصة واحوال العراق بصورة عامة , ذلك عندما غزاها الاعاجم من الفرس والترك .. وما رافق هذا الغزو من عوامل الدمار والتخريب نتيجة الحروب التي راح ضحيتها الكثير من الابرياء. فضلا عن الكوارث مثل الفيضانات والأوبئة والامراض ومارافقها من غلاء في الاسعار . وكانت هذه العوامل قد عجلت في زوال واندثار الكثير من معالم بغداد العمرانية والثقافية .

ورغم ذلك فقد استمرت مكانة مدينة بغداد واهميتها تحتل مركز الصدارة بين المدن الاسلامية الاخرى , حيث ظلت تؤدي دورها كحلقة وصل تربط بين المدن والحواضر في داخل العراق وخارجه, وما تقدمه لها من خدمات كبيرة للتجار والمسافرين والزوار .

ثم تلاحقت اقدارها على حساب ابنائها .. اختلت موازينها وبدأ الخراب يدب فيها وينهش في جسدها منذ اجتياح المغول لها .. فظلت تلعن جنون الغزاة وجشع اللصوص , وتحن الى نسقها الحضاري الذي عاشت نهاره مدة طويلة .

وفي مرحلة لاحقة اخذت بغداد تتلمس طريقها الى الخلاص , فشاءت ان تحطم اغلالها بتاريخ جديد , انها ارادت ماكان لها.. فكان لها ماارادت بهمة ابنائها وموارد مياهها وخصب ارضها ونشاطها التجاري .

وفي دورة اخرى من ادوار وجودها هبت عليها رياح التغيير.. فكانت بين مدٍّ وجزر.. بين مؤيد ومعارض وقعت خلالها في مطبات بعضها حادة عاشت ابانها في دياجير الظلام وتعرض ابنائها الى مظالم الاستبداد الفردي وتكميم الافواه وقتل الابرياء .. الى ان جاءت الطامة الكبرى .. طامة الاجتياح الاجنبي البغيض تحت عنوان " التحرير "وبتأييد من اذنابهم من قوى الظلام والطائفية ولصوص المال وقوى الانفصال وتمزيق اوصال الوطن والارهاب العالمي وتحطيم بنية المدينة ، بل تمزيق الدولة بكاملها وحل جميع مؤسساتها وطمس تراثها الحضاري وسجلاتها ووثائقها ومعالمها العمرانية بتأييد من حزامها المحيط بها ..المتربص بأبنائها وارضها .. فعاثت تللك القوى فسادا ومازالت تبث سمومها حتى يومنا هذا , فحصدت من البشر الالاف وشردت الملايين من ديارهم. ومازالت بغداد تنتظر (المنقذ) , كما انتظرت الأمة من قبل , منقذها صلاح الدين الايوبي محرر بيت مقدسها وديار العروبة والاسلام .

**ارجو ان اكون قد وفقت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب .**

**الفصل الاول**

**تاريخ مدينة بغداد واهمية موقعها**

يعود الموضع الذي بنيت فيه مدينة بغداد الى عهود متوغلة في القدم , فقد ورد ذكر مدينة بأسم ( بكدادا) من زمن الملك حمورابي( القرن 18ق.م) , وذلك في لوح وجد في (سبار) المعروفة اليوم بأسم (ابي حبة) في اليوسفية . كما ورد اقليم بأسم ( بغدادي ) في لوح يرجع الى زمن أحد ملوك الكشيين ( 1341- 1316 ق. م .) . وذكرت بغداد ايضا في وثيقة وجدت في نينوى يرجع تأريخها الى زمن نبوخذ نصر الثاني( 605 -558 ق. م. )(1) . ومنهم من يرى ان اصل بغداد كلداني او ارامي فيكون معنى (بكدادا ) بيت الغنم , ومن المحتمل انهم كانوا يبيعون في سوقها الغنم في اول الامر(۲) .

وكان في موضع بغداد المذكور دير عتيق وبجواره قرية ( كرخا) ولها سور(3).ويمثل ذلك الموضع قرية تقع في منطقة بادوريا, كانت تقوم فيها سوق عظيمة في كل شهر مرة فيأتيها تجار فارس والاهواز والصين وسائر البلاد(4). واغار على هذه السوق خالد بن الوليد(5) , والمثنى بن حارثة الشيباني .(6)

ان موضع قرية بغداد المذكور كان مركزاً ستراتيجيا واقتصاديا وتجارياً، وكان معمورا منذ مايزيد على 3000 عام , حيث انتشر الى جواره العمران من كل صوب لوقوعه في بقعة متوسطة بين مراكز المدنيات القديمة , فكان نقطة التقاء بين الامم المتمدنة المختلفة , فازدهرت فيه بابل ثم سلوقية وطيسفون فالمدائن واخيرا بغداد في عهد المنصور(7). وقبل بنائها كانت الارض التي شيدت عليها المدينة تمثل مزرعة للبغداديين يقال لها( المباركة ) وكانت لستين نفسا منهم, فعوضهم الخليفة المنصور وارضاهم . وكانت تمتد حول موضعها عدة قرى منها قرية الخطابية الواقعة على جانب باب الشام يسكنها قوم من الدهاقين يقال لهم بنو فروة وبنو قنورا , فضلا عن وجود قرى اخرى .(8)

وكان يحيط ببغداد عند بنائها وقبل ذلك، اربعة طساسيج : اثنان منها في الجانب الشرقي من نهر دجلة , وهما طسوج نهر بوق في الشمال وطسوج كلواذى في الجنوب . واثنان في الجانب الغربي وهما طسوج قطربل في شمال نهر الصراة وبادوريا الى الجنوب من النهر المذكور(9).

وتبعا لتقسيمات الجغرافيين العرب للمعمورة , فإن بغداد تقع في الاقليم الرابع او الاوسط من الاقاليم السبعة(10) , وتجعل اراء اخرى موقعها في الاقليم الثالث .وهي واحدة من الاستانات(\*) الستة (\*\*) التي يتكون منها العراق بحسب تصنيف المقدسي. وتضم بغداد 24 مدينة من بينها كلواذى (11) واكثر من 213 قرية (12) .

ويأتي المركز المتميز لمدينة بغداد ومكانتها من موقعها النهري المتوسط والكثيف سكانيا قياسا ببقية مناطق العراق . ان استقرار هذه المركزية في الموقع، على ضفتي نهر دجلة وسط العراق , قد زاد من اهمية المدينة وظيفيا وكعاصمة للبلاد . حيث يمثل هذا المكان جزيرة تقع بين نهري دجلة والفرات وتأتي من غربه السفن القادمة من جميع الاتجاهات، فهي تتوسط العراق وقريبة من البر والبحر والجبل .

وقد اخذ مثل هذا البعد المكاني واهميته بالحسبان عندما تم بناؤها لاول مرة. فهي وكما قال ياقوت " من الاقليم الاعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة "(13) . واكثر من ذلك فقد كان ولازال لبغداد بحكم موقعها اهمية سياسية وادارية. وبغض النظر عن التطور الذي اصابها , فقد استمرت بغداد عبر مراحلها المختلفة اما عاصمة اقليمية او قومية , والدور الوظيفي المركزي الذي ادته يؤهلها لأن تكون عاصمة . وان لذلك اهمية كبيرة في توسع او تقلص علاقاتها المكانية مع المحيط بها مكانيا عربيا كان ام اجنبيا (14).

ويرى الخطيب البغدادي ان اسم بغداد يعني في الفارسية(عطية الصنم)او(عطيةالملك)(15),او كما ذكر غيره(عطية الله او هبته )(16). ويزعم بعض الاعاجم ان اسمها يعني (بستان رجل)(17)، ويرى آخرون ان اسمها عربي .

وروي اسمها بصيغ عديدة منها ( بغدان ) , والناس يفضلون اسمها الجاهلي (بغداد). اما الاسم الذي اطلقه المنصور عليها فهو ( دار السلام )(18) ، لان دجلة كان يقال لها وادي السلام. اما اسمها الاول عند الناس فهو الزوراء لانعطافها بانعطاف دجلة(19).

والمدينة المدورة يمكن ان تعد اعظم تجربة معمارية قام بها العرب المسلمون في العصر العباسي في منتصف القرن الثاني الهجري. وفيما تركته من تأثير واضح في المدن التي اختطها العرب في البلاد الاسلامية خلال حكمهم الطويل. ذلك لانها كانت تعتمد على تنظيم هندسي دقيق ,وخبرات فنية ومعمارية وامكانات مادية , وجهود رائعة بذلها المنصور واصحابه لتكون عاصمة للدولة العربية الجديدة التي كانت تمتد من الاندلس غربا الى الصين شرقا(20).

وكان سبب عمارتها ان اهل الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك فانتقل عن هاشمية الكوفة(21). بعد ان ارسل روادا يفتشون له موضعا يبني فيه مدينته فأختير له موضع قريب من (بارما) لكن ليس فيه الميزات التي يريدها الخليفة , لذلك وقع الاختيار على موضع بغداد (22).

وأتى الخليفة ناحية الجسر فعبر وبات في موضع قصر السلام ليلة واحدة فلما اصبح شعر باطيب مبيت , فقال : هذا موضع ابني فيه , فوضع بيده اول لبنة وقال:"بسم الله والحمد لله , والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال : ابنوا على بركة الله "(23) . فانت بين انهار لايصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك عدوك "(24) . وجاء المنصور فنزل الدير الذي هو في موضع الخلد على الصراة فوجده قليل البق , فقال: " هذا موضع ارضاه , تأتيه الميرة من الفرات ودجلة ويصلح ان تبنى فيه مدينة ". (25)

وقد اختطها الحجاج بن ارطأة وابو حنيفة النعمان في ابدع بقعة من بقاع الشرق , فجاءت آية في العمران والعظمة (26). وللمدينة اربعة ابواب , كل بابين منها متقابلان . فالقادم اليها من المشرق يدخلها من باب خراسان , والقادم من المغرب يدخلها من باب الشام , والقادم من الحجاز يدخلها من باب الكوفة . في حين يدخلها القادم من الاهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين من باب البصرة .(27)

اما المسافة بين كل باب وآخر فقد جعلت ميل واحد(28) (2000) م , وقيل(5000) ذراع (2500م)(29), وقيل غير ذلك. ووضع بين كل بابين 28 برجا وزيد برج اضافي بين بابي البصرة والكوفة (30). ونقل المنصور ابوابها من واسط ومد لها قناة من نهر دجيل الاخذ من نهر دجلة, وقناة اخرى من نهر كرخايا الاخذ من الفرات (31) .

وجعل عرض اساس سور المدينة من اسفله (90) ذراعا .(32) . وورد ايضا 50 ذراعا ومن اعلاه (20) ذراعا(33). ووضع المنصور قصره ( قصر باب الذهب ) والجامع وسط المدينة المدورة. كما بنى القبة الخضراء فوق ايوان قصره بارتفاع 80 ذراعا(34)(حوالي 40 مترا)(\*) .

وقد قسم المنصور بغداد المدورة الى اربعة اقسام او ارباض , وقسم الارباض الى اربعة ارباع، وجعل لكل ربع رجلا من المهندسين(35) . وفضلا عن قصره خصص الخليفة دارا لصاحب الحرس وسقيفة كبيرة لصاحب الشرطة تسمى الرحبة العظمى. ولايسمح لاحد ، حتى لاعمام الخليفة، ان يدخلها من الراكبين ومن حولها سور يتلوه الطريق. وبعد الرحبة تقوم القطائع التي بناها اهله وقواده واولاده وبيوت المال وخزانة السلاح والدواوين . واقطع المنصور القطائع على اطراف بغداد من الخارج لاقربائه . وامر الخليفة سنة 157هـ بأخراج الباعة من مدينته ليجعلها مدينة ملكية خالصة بعد ان خطط للاسواق في الكرخ جنوب بغداد ونقل الباعة اليها . وكانت الكرخ هي السوق العظمى وتمتد طولا بمقدار فرسخين وعرضا بمقدار فرسخ واحد(36) .

اما تقديرات كلفة البناء فقد تراوحت بين 200 الف دينار , و18 مليون دينار , وتقدير وسط جعلها 4 ملايين 883 (او 833 ) الف درهم(37) .

يظهر مما تقدم ان اول من مصر بغداد وجعلها مدينة عظيمة كان المنصور بالله ابو جعفر الذي انتقل اليها من الهاشمية . وهي مدينة كان قد اختطها أخوه ابو العباس السفاح قرب الكوفة. وشرع المنصور في بناء مدينة بغداد سنة 145هـ /762م (38) , واقطع فيها القطائع لاصحابه ونزلها سنة 149 هـ/ 766 م (39) .

أما امتداد المدينة فقد قال احمد بن حنبل انها تمتد من الصراة الى باب التبن، وهو مشهد الامام موسى الكاظم (ع) . ثم زيد فيها حتى بلغت كلواذى والمخرم وقطربل(40) . وبعد اكمال المدينة بنى المنصور مدينتان متممتان : الاولى جنوبها حلت محل (كرخا) وحملت اسمها ونقل اليها عامة الناس . والثانية(الرصافة) على الجانب الشرقي من دجلة وبناها معسكرا لابنه المهدي , وبنى فيها قصرا ينزل فيه. كان ذلك سنة 151 هـ , والحق بالقصر ثكنات ومعسكرات(41) . ثم توالى بعد ذلك بناء احياء ضخمة متصلة بالمدينة صارت جزءا منها مثل الشماسية شرقي دجلة والمخرم (42) .

وعمل المهدي في الرصافة جامعاً, وفرغ من بناء الرصافة والجامع سنة 159هـ وهي السنة الثانية لخلافته , ثم خربت المدينة ولم يبق منها سوى الجامع والى جانبه مقابر خلفاء بني العباس في محلة ابي حنيفة وبها قبره (43) . ثم انتقلت عاصمة الخلافة الى الجانب الشرقي من دجلة وبنى المستعين لها سورا نحو الشمال, ثم زحفت جنوبا فبنى لها المستظهر سوراً آخر(44).

وبعد قرن من بنائها ذكر اليعقوبي ان السكك حصيت في بغداد وما حولها فبلغت 6000 درب، والمساجد 30000 مسجد فضلا عن 10000 حمام(45).

وغطت بغداد في اوج ازدهارها في العصر العباسي مساحة تعادل خمسة اضعاف مساحة القسطنطينية في القرن العاشر و 13 ضعفا من مساحة المدائن ( طيسفون ) عاصمة الساسانيين في العراق . وقدر العالم الامريكي (ج. لاسنر ) سكانها بنحو (560) الف نسمة وغيره قدرها بحوالي (200) الف نسمة (46) . فضلا عن تقديرات مبالغة تصل الى مليوني نسمة .

**الهوامش**

1. مصطفى جواد ,احمد سوسة ,دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديما وحديثا, مطبعة المجمع العلمي العراقي , بغداد, 1958, ص17 ,28 .

2-المصدر نفسه ص18 .

3- ابن طباطبا الطقطقي , الفخري في الاداب السلطانية , مطبعة صادر , بيروت , ص162 .

4-الخطيب البغدادي , تاريخ بغداد او مدينة السلام , المجلد الاول , دار الكتاب العربي , بيروت د.ت , ص 25-26 , ياقوت الحموي , معجم البلدان , المجلد الاول , دار صادر , دار بيروت, بيروت , 1955 , ص 456-457 .

5- شاكر مصطفى, المدن في الاسلام حتى العصر العثماني, ط1, ج1, ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع , الكويت , 1988 , ص330 .

6- مصطفى جواد , احمد سوسة , مصدر سابق , ص14 .

7- دائرة المعارف الاسلامية , المجلد الرابع , طهران , ص7, مصطفى جواد , احمد سوسة , مصدر سابق , ص13-16 .

8- الطبري, تاريخ الرسل والملوك ,تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم, ج7, القاهرة, 1977, ص69.

9- المقدسي , احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم , عناية دي غويه , مطبعة بريل, ليدن, 1906 ص119 , ياقوت , مصدر سابق , المجلد الاول , ص458.

10- الخطيب البغدادي , مصدر سابق , 1/23, ياقوت , مصدر سابق , 1/30 .

(\*) ذكر ياقوت ان الاستان (او الكورة ) كل صقع يشتمل على عدة قرى, وينقسم الاستان الى الرساتيق , والرستاق الى الطساسيج , والطسوج الى عدة قرى ( ياقوت 1/36-38 ).

(\*\*)الاستانات المذكورة هي بغداد , الكوفة , البصرة ,واسط , سامراء ,حلوان(المقدسي , ص114).

11- المقدسي, مصدر سابق , ص114-115 , ايضا : مكسيمليان شتريك , خطط بغداد وانهار العراق القديمة , ترجمة د. خالد اسماعيل علي , مطبعة المجمع العلمي العراقي , بغداد , 1986, ص 43-44 , 68 .

12- ناجية عبد الله ابراهيم , ريف بغداد , ط1, وزارة الثقافة والاعلام , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد , 1988 , ص 68 . ومما يجدر ذكره , امكن تحديد اسماء 92 قرية تقع في منطقة بغداد ورد ذكرها في معجم البلدان لياقوت ( الباحث ) .

13- ياقوت , مصدر سابق , 1/461 .

14- خالص الاشعب , مدينة بغداد , نموها , بنيتها , تخطيطها , الموسوعة الصغيرة (رقم 108 ) وزارة الثقافة والاعلام , منشورات دار الجاحظ , بغداد ,1982 , ص 7-8 .

15- الخطيب البغدادي , مصدر سابق , 1/60 .

16- هيوار ," بغداد "، دائرة المعارف الاسلامية , المجلد الرابع, ص 3 .

17- الخطيب البغدادي , مصدر سابق , 1/60

18- هيوار , مصدر سابق , 4/3 .

19- الحميري , الروض المعطار في خبر الاقطار ( معجم جغرافي ), حققه احسان عباس, ط2 ,مكتبة لبنان , بيروت , 1984 , ص110 , ايضا : الخطيب البغدادي , مصدر سابق , 1/60 .

20- طاهر مظفر العميد , بغداد مدينة المنصور المدورة، منشورات المكتبة الاهلية , مطبعة النعمان، النجف الاشرف , 1967 , ص 33 , ( مقدمة ناجي معروف ) .

21- ياقوت , 1/457 , ابن الأثير , الكامل في التاريخ , ط3, ج5 , دار الكتاب العربي , بيروت، 1980 , ص 15, 20, 28 .

22- شاكر مصطفى , مصدر سابق , 1/193.

23- ابن الاثير , مصدر سابق , 5/15

24-الطبري , مصدر سابق , 7/617 , ياقوت , مصدر سابق , 1/458- 459 .

25- المصدر نفسه ,7/618 .

26- ابن الاثير , مصدر سابق , 5/15 , عبد الرزاق الحسني , موجز تاريخ البلدان العراقية , ط1 , مطبعة النجاح , بغداد , 1930 , ص38

27- الخطيب البغدادي , مصدر سابق , 1/72-74 . ايضا : محمد صبيح عبد القادر , ابو جعفر المنصور , دار الثقافة العامة , القاهرة , 1939 , ص88 .

28- شاكر مصطفى , مصدر سابق , 1/ 194 .

29- عبد الرزاق الحسني , مصدر سابق , ص 38 .

30- الخطيب البغدادي , مصدر سابق , 1/72 .

31- شاكر مصطفى , مصدر سابق , 1/194 .

32- الحميري, مصدر سابق , ص111 .

33- ابن الاثير , مصدر سابق , 5/15 . ايضا عبد الرزاق الحسني ,مصدر سابق , ص38.

34- شاكر مصطفى , مصدر سابق , 1 / 194 .

(\*) سقط رأس هذه القبة سنة 329 هـ .

35- ابن الاثير , مصدر سابق , 5/15 , شاكر مصطفى , 1/369 .

36- شاكر مصطفى , مصدر سابق , 1/371- 375 .

37- ياقوت , مصدر سابق , 1/458-459 , الخطيب , 1/69, ابن الاثير , 5/21, محمد صبيح عبد القادر , مصدر سابق , ص93 .

38- حول بدء تاريخ بناء المدينة راجع : البلاذري ,فتوح البلدان , ط1, القاهرة,1901,ص303. ايضا الخطيب البغدادي , مصدر سابق ,1/69 . وذكر الحميري ان المنصور فرغ من بناء المدينة ونقل الخزائن والدواوين وبيوت المال وانتقل اليها سنة 146 هـ , واكد هذا الانتقال ابن الاثير ( الحميري , ص110 , ابن الاثير ,5/20 ).

39- المقدسي , مصدر سابق , ص 121 , ياقوت , مصدر سابق , 1/457 ,محمد صبيح عبد القادر , مصدر سابق , ص 91-92 .

40- ياقوت , مصدر سابق , 1/457 .

41-ابن الاثير,مصدر سابق , 5/33-34 , محمد صبيح عبد القادر,مصدر سابق , ص91-92.

42- شاكر مصطفى , مصدر سابق , 1/332.

43- المصدر نفسه , 1/213 .

44- المصدر نفسه , 1/332-334 .

45- اليعقوبي , ص250 , ( عن شاكر مصطفى ,1/375 ).

46- شاكر مصطفى , مصدر سابق , 2/31.